



الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

التَّحْرِيفُ بِابْنِ مَالِكٍ

ابْنُ مَالِكٍ

تَبْهِيْلُ الْفَوَائِدِ وَتَكْمِيلُ الْمَقَاصِدِ

حَقَّقَهُ وَقَدَّمَ لَهُ
مَحَمَّدُ كَامِلُ بَرَكَاتٍ

الناشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

١٩٨٧م - ١٩٦٧م

ابن مالك
تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد

المكتبة العربية

تصدروا

وزارة الثقافة

الموتمة المصرية العامة للنايف والتشريع

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور يوسف خليف

أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب بجامعة القاهرة

أبو عبد الله جمال الدين محمد بن مالك الطائى الأندلسىّ الدمشقىّ أكبر نحوىّ ظهر في القرن السابع الهجرىّ في العالم الإسلامى كله ، ومن أشهر النحاة الذين عرّفهم تاريخ النحو العربى منذ نشأته المبكرة في القرن الثانى للهجرة إلى اليوم . والواقع أننا — إذا استثنينا سيبويه أبا النحو العربى ، وصاحب « الكتاب » أشهر كتاب في النحو — لا نكاد نجد عالما من علماء النحو نال تلك الشهرة العريضة التى نالها ابن مالك صاحب « الألفية » ، حتى ليخيل للباحث أن ظهور ابن مالك يُعَدُّ بداية مرحلة جديدة في تاريخ النحو العربى يقف هو فوق قمته الشاخنة ، وهى قمة لم يستطع أحد من النحاة من بعده أن يترقى إليها أو يمد بصره طامحا في بلوغها . وكأنا انقسم تاريخ النحو العربى الطويل منذ نشأته إلى اليوم إلى مرحلتين أساسيتين ، يقف سيبويه على قمة المرحلة الأولى ، ويقف ابن مالك على قمة المرحلة الأخرى ، وإذا كانت أهمية سيبويه ترجع إلى أنه هو الذى سجّل قواعد النحو العربى ، وخطا به الخطوة الأولى التى حدّدت معالمه ورسمت اتجاهاته ، فإن أهمية ابن مالك ترجع إلى أنه هو الذى قام بأكبر عملية تصفية تمت في تاريخ هذا النحو ، وخطا به الخطوة الأخيرة التى استقرّ بعدها في صورته الثابتة إلى اليوم . وكأنا ضمن الزمن بعد سيبويه بمقاليده خزائنه ليسلمها لابن مالك في القرن السابع حتى يفتش بها هذه الخزائن النفيسة ليستخرج ما فيها من كنوز غالية . وهى كنوز لم تُستخرجها مقاليده سيبويه للناس كما أتاحها مقاليده ابن مالك الذى مازلنا نعيش حتى اليوم على ذلك الميراث الضخم الذى خلّفه من بعده ، وهو ميراث ضخم حقاً يبلغ نحو أربعين مصنفًا في النحو والصرف واللغة والقراءات .

ولكن أهمية ابن مالك — في حقيقة الأمر — لا ترجع إلى هذه الغزارة في الإنتاج ، بقدر ما ترجع إلى ذلك المذهب النحوى العميق الأثر فى النحو العربى الذى أقام دعائمه ، ورفع قواعده ، وآتم بنيانه . ومن حسن حظ النحو العربى أن ابن مالك قد ظهر بعد أن نضجت دراساته ، واكتملت مذاهبه ، وتحددت اتجاهات مدارسه ، فقد أتاح له ذلك أن يكون على صلة بكل هذه المذاهب والاتجاهات المتعددة المختلفة التى يبدو — من خلال كتبه — أن صلته بها كانت صلة وعي دقيق وإدراك عميق واستيعاب شامل لها ، وأيضا صلة ذكاء لامع عبقرى ، وعقلية مبدعة خلاقة . فاتصال ابن مالك بالتراث النحوى الضخم الذى خلّفه النحاة السابقون لم يكن اتصال من يريد أن يعيه ويستوعبه فحسب ، ولكنه أيضا اتصال من يريد أن يضيف جديدا

إليه ، أو أن يأتي — كما يقول أبو العلاء — « بما لم يستطع الأوائل » . وهو ما يصرّح به في مقدمته لكتابه « التسهيل » حيث يقول : « وإذا كانت العلوم منحة إلهية ، ومواهب اختصاصية ، فغير مستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ، ما عسّر على كثير من المتقدمين » .

وحقا لقد ادخر الله تعالى لابن مالك ما تفوق به على كثير ممن سبقه من النحاة ، وهياً له من الأسباب ما أتاح له أن يصل إلى ذلك الحديد الذي لم يستطع الأوائل ، وهو هذا المذهب الذي شغل به النحاة من بعده ، والذي ظل أساساً لأكثر الدراسات النحوية إلى اليوم . وهو مذهب يقوم على أساس المزج والاختيار من المذاهب السابقة كلها ، مع ميل واضح إلى الحياء والتيسير ، وجنوح شديد إلى الاجتهاد والتجديد .



و « الألفية » أشهر كتب ابن مالك النحوية ، بل لعلها أشهر كتب النحو العربي بعد « الكتاب » . وهي تستمد شهرتها من أنها خلاصة دقيقة بالغة الدقة لأهم قواعد النحو العربي التي يقوم عليها بناؤه الشامخ ، يسر نظمها وحفظها ، وفتّح تركيزها الأبواب أمام العلماء المتأخرين ليشتبوا عن طريق شرحها ، والتعليق عليها ، وبسط ماركزته ، والإطالة فيما لخصته .

ولكن الألفية — على هذه الشهرة الضخمة التي ظفرت بها — ليست أهم كتب ابن مالك النحوية ، وإنما هناك « التسهيل » الذي يُعد — بحق — أهم كتاب من هذه الكتب ، والذروة التي وصل إليها في دراساته النحوية . وأهمية هذا الكتاب تأتي — في حقيقة الأمر — من أنه يمثل في دقة بالغة خلاصة التجربة النحوية الطويلة العميقة الخصب التي عاش ابن مالك حيّاته لها ، ووهبها كل جهده وطاقته . ومن هنا لم يكن غريباً أن يشغل به العلماء طوَال ستة قرون منذ أن ألفه صاحبه في القرن السابع الهجري إلى أواخر القرن الثالث عشر ، بل لقد وصل الأمر بأبي حيان النحوي ، وهو أشد النحاة مخالفة لابن مالك ، وأكثرهم شغباً عليه ، إلى أن يفترض على نفسه ألا يقرئ أحداً إلا فيه أو في كتاب سيبويه . وهو موقف قد يبدو غريباً ، ولكنه « التسهيل » يفرض نفسه حتى على أشد النحاة تعصباً ضد صاحبه ، كما فَرَض « الكتاب » من قبل نفسه على نخاة الكوفة المخالفين لمذهب صاحبه واتجاهات مدرسته .

وعلى أهمية هذا الكتاب ، وعلى هذه المترلة الرفيعة التي وصل إليها ، ظل مطوياً في ظلمات خزائن الكتب ، لم يقدر له أن يرى النور إلا في طبعة قديمة صدرت في مكة المكرمة منذ خمسة وستين عاماً ، وهي طبعة لم تتوافر لها وسائل التحقيق العلمي الدقيق ، ولم تتحقق بها مناهجه العلمية المعروفة لنا الآن . وحتى هذه المطبوعة — على ما فيها — لحقت أخواتها المخطوطات ، فطُوِيَتْ مثلهن في بعض خزائن الكتب ، ولم تعد في مُتَسَاوِل أيدي الباحثين . ومن هنا أصبحت الحاجة ماسة إلى بعث هذا النص القيم إلى الحياة ، ونقّض ما تراكم عليه من غبار السنين ، وأصبح نشره أملاً يراد القارئ على أمر العربية ، وأمنية تداعب أحلام طلابها . ومن هنا — مرة أخرى — كان ترحيبي الصادق بهذا العمل الجليل الذي قام به الأستاذ محمد كامل بركات الذي وقّف عليه جهده السنين ذوات العدد ، ولم يتّسن عليه لا بالجهد ولا بالزمن .



وأنا أعرف محقق هذا الكتاب منذ أن كان طالباً بقسم اللغة العربية في كلية الآداب من جامعة القاهرة مشغولاً بالنحو والنحاة، مشغولاً به وبهم شغفاً يملأ عليه كل وقته . وهو شغفٌ دفعه في دراسته العليا للحصول على درجة الماجستير إلى أن يتخذ من النحو مجالاً لها، وهو طريق وعبرٌ اختاره لنفسه في كثير من الرضا والارتياح . ومن بين معالم هذا الطريق المتعددة اختار ابن مالك ليكون فاتحةً يسهلُ بهانشاطه العلمي . وابن مالك - في حد ذاته - منطقةٌ وعرة من مناطق نحونا العربي، ولكنه - مع ذلك - لم يكتف بهذا فحسب ، ولم يقنع به وحده ، وإنما اختار من ابن مالك أشد مناطق وعورةً ، وهو كتاب « التسهيل » ليدرس ابن مالك ومذهبه النحوي من خلالهِ . ولست أخفى أنني - حين عهد إلى بالإشراف على هذا البحث - شعرت بشيء غير قليل من الإشفاق .. الإشفاق على الباحث من البحث ، والإشفاق على البحث من الباحث . أشفقت على الباحث لأنني أدرك وعورة الطريق الذي اختار أن يسلكه ، وأقدر ثقل العبء ، وضخامة التبعة التي أبي إلا أن يحملها ، وأشفقت على البحث من أن تنوء به اليد الناشئة التي أبت إلا أن تقوم بأعبائه الثقيلة وتبعاته الجسام . ولكني لم أكد أمضي في مراجعة البحث - بعد أن فرغ الباحث منه - حتى أخذت أشعر بأن إشفاقى على البحث قد أخذ يتضاءل ، وأن إشفاقى على الباحث قد أخذ يزداد . فقد رأيت اليد الناشئة التي أبت إلا أن تنهض بأعبائه وتبعاته بدأ قويةً قادرةً ، وأن صاحبها يمتاز بطاقة ضخمة من الجلد والاحتمال والصبر على وعورة الطريق وثقل العبء . ولكني كنت أراه يكلف نفسه من أمرها رهقاً ، بل يكلف نفسه فوق وسعها . واطمأنت نفسي في خاتمة المطاف حين قدرت الجامعة هذا الجهد الضخم، فمستححت صاحبه أرفع تقديرٍ تمنحه لطلاب الماجستير بها . وهو الامتياز .

وقد توقعت بعد ذلك أن يمضي الباحث في طريقه الذي اختاره لنفسه ، وأن يقوم بنشر « التسهيل » الذي كان قد بدأ في تحقيقه في أثناء دراسته لصاحبه ومذهبه النحوي فيه ، والذي كان قد جمع من أجله كل ما وصلت إليه يده من نُسَخ المخطوطة في مكتبات القاهرة ودمشق والاسكندرية ، وأيضاً مطبوعته التي نشرت في مكة المكرمة من قبل ، حتى اكتملت له اثنتا عشرة نسخة هي التي اعتمد عليها في إخراج هذا الكتاب من ظلمات الخزان إلى نور الحياة . ومع إدراكي لوعورة الطريق ، وما يكتنفه من صعاب ، وما يقوم في طريقه من عقبات ، شجعت الباحث على أن يمضي فيه ، حرصاً مني على تحقيق الأمل الذي طالما راود القائمين على أمر العربية ، وبلوغ الأمنية التي طالما داعبت أحلام طلابها . وما زلت أطمع - استمراراً مني في هذا الحرص - في أن يظل الباحث مشغولاً بالتسهيل حتى يخرج أهم الشروح التي قامت عليه من ظلمات الخزان إلى نور الحياة .

والله أسأل أن يجزى الباحث عن الجهد الذي بذله في سبيل إخراج هذا الكتاب في هذه الصورة العلمية الدقيقة خير الجزاء ، وأن يشد على اليد الناشئة التي نهضت بهذا العبء الضخم الذي تنوء به العُصبة أولو القوة، حتى تُخرج من خزائن تراثنا العربي الخالد كنوزه الغالية النفيسة ، تحقيقاً لآمال ما زالت تراودنا ، وبلوغاً لأمانى ما زالت تداعب أحلامنا .

والله يسدد خطانا ، ويُسجِّمنا الزلل ، ويعصمنا من فتنة القول وفتنة العمل .

يوسف خليف

القاهرة في ١٠ من ديسمبر ١٩٦٤ .